B. الشرق الأدنى السلجوقي والفاطمي من وصول طغرل بك إلى الحكم وحتى مطلع الحملة الصليبية الأولى [١٠٥٥ - ١٠٩٨]

I. أمبراطورية الأتراك السلاجقة في الشرق الأدنى، تأسيسها، تنظيمها، تجزئتها ١٠٥٥ ـ ١٠٩٨

١ ـ في عهد طغرل بك (١٠٥٥ ـ ١٠٦٣) هجومات وغزوات على آسيا الصغرى

أ ـ الأمبراطورية السلجوقية، تنظيم عسكري وإقطاعي

كانت أمبراطورية طغرل بك، المتمحورة حول فارس والمتركزة حول عاصمتها أصفهان، تضم إيران وجزءاً من تركستان، ومنذ العام ١٠٥٥ بغداد والعراق حتى الموصل وديار بكر. «وصار طغرل، الذي كان ملكاً على الشرق (إيران) وعلى الغرب (العراق) والذي تخلى الخليفة العباسي له عن سلطته الزمنية وزوّجه إبنته، سيداً وملكاً أعلى لهذه الأمبراطورية التركية ـ الإسلامية الواسعة. إن لقب «سلطان» العربي الذي حصل عليه من الخليفة يوازي لقب بازيليوس اليوناني أو أمبراطور (ملك الملوك) الذي كان يحمله أباطرة بيزنطية، والذين سيستأنف السادة الأتراك على خلافة بغداد، الحرب التقليدية ضدهم وهي الصراع الذي شهده الإسلام المجاهد في القرنين السابع والثامن. وأما الدور الروحي الذي كان لخليفة بغداد العباسي إزاء السلطان التركي ـ السلجوقي فيشبه إلى حد بعيد دور بطريرك القسطنطينية لدى الأمبراطور اليوناني البيزنطي.

«إن المفهوم التركي للسلطة كان يمنع كل إستمرارية في ممارسة السلطة كما يحول دون قيام أي تماسك في أمبراطورية بمثل هذا الإتساع. فمن بين المقاطعات المحتلة فإن بعضها ترك لحكم الأمراء المحليين شرط أن يدفعوا

جزية معينة. وهناك مقاطعات أخرى منحت لرؤساء مختلف فروع الأسرة. ولم يكن على هؤلاء سوى إطاعة كبير الأسرة طاعة نسبية أسوة بإطاعة أفراد العيال العربية لمشائخها.

وأما طابع هذه السلطة فكان رهناً بقدرة الشخص المتسلم لها ووفرة عدد الأسر والرغبة الفطرية لدى زعمائها بتأسيس سلالة خاصة بهم وتكوين إرث لأولادهم من بعدهم وطموحات الأمراء... كل ذلك يجعل المنازعات والثورات مستمرة. ومن هنا نفهم سبب تنقلات السلطان المستمرة عبر مقاطعات الأمبراطورية حيث كان وجوده ضرورياً لإعادة العصاة إلى الطاعة. ومن هنا جاء تقسيم تلك الأمبراطورية إلى إمارات متفاوتة الإتساع وتأسيس سلطنات سلجوقية...

إن السلاجقة العظام الذين لم يعرفوا كيف ينشئون دولة دائمة يظهرون لنا على الأخص كرجال حرب وضاربي سيف لا مثيل لهم. غير أنه كان لهم دور حاسم في توجيه الإسلام وتأثير لا يستهان به على الحضارة. وهم بحلولهم محل البويهيين الذين أقاموا الهرطقة الشيعية في قلب عاصمة الخلافة نفسها... نصبوا أنفسهم منقذين للشريعة السنية المهددة بالخطر ووضعوا قوتهم العسكرية وتنظيمهم الإداري في خدمة الإسلام القويم وقائده»[1].

ب ـ الغزوات التركية في آسيا الصغرى

إن الهجومات والغزوات السلجوقية على الأراضي البيزنطية، والتي كانت قد بدأت حتى قبل دخول طغرل بك إلى بغداد، إستمرت بلا هوادة. فمنذ العام ١٠٤٨ كانت حملة يقودها إبن عم طغرل المدعو إبراهيم أينال قد توغلت حتى أرضروم. وفي العام ١٠٥٢ إكتسحت بلاد طرسوس، وفي العام ١٠٥٤ غزا طغرل بك بنفسه أرمينيا. وفي العام ١٠٥٧ نهبت الزمر السلجوقية الكبادوك وميليتين. وفي العام ١٠٥٩ تقدم الأتراك حتى سيواس حيث قتلوا قسماً من السكان. غير أنه وحتى وفاة طغرل بك (١٠٦٣) فإن الهجمات على الأناضول، حيث أخفق السلاجقة في الإستيلاء على أي حصن، إقتصرت على عمليات سلب ونهب قامت بها زمر منفردة ولم يعقبها أي إحتلال للبلاد.

إن المقاومة الضعيفة التي كان يواجه بها اليونان الهجمات التركية على

1 C. Diehl et G. Marçais, *Le monde oriental de 395 à 1081*, p. 575, 576.

آسيا الصغرى كانت ناجمة عن روح «سلمية» لا بل «إستسلامية» كانت تسود في ذلك العصر داخل بلاط بيزنطية.

«فمنذ وفاة بازيليوس الثاني العام ١٠٢٥ فإن الآلة العسكرية البيزنطية الضخمة، التي كانت قائمة أيام قادة أمثال فوقاس وتزيميسكس، تحطمت تحطيماً نظامياً بفعل تدخل الساسة البيزنطيين أنفسهم... إن الجيش البيزنطي الكبير كان يجري تجنيد معظم أفراده، كما رأينا، من بين سكان الأناضول. وكان قادته من كبار مالكي الأراضي الأناضوليين،الذين غالباً ما كانوا يفرضون وصايتهم على السلالة المقدونية الحاكمة. وبدءاً من العام ١٠٢٥ سرت غضبة البيروقراطية ودوائر البلاط وحزب مجلس الشيوخ بعدما ضاقوا ذرعاً بالإمتيازات الممنوحة إلى الأرستوقراطية الأناضولية وأداتها: الجيش، وراحوا يتبعون وبشكل منظم سياسة مناهضة للروح العسكرية أفلحت في أقل من نصف قرن في كسر شوكة القوة البيزنطية. إن الترك السلاجقة هاجموا أمبراطورية في عز تفككها المعادي للروح العسكرية.

كما لا ينبغي الإعتقاد بأن الهجوم السلجوقي إتخذ شكل الإقتحام الجماعي للأراضي البيزنطية. فخلال مدة طويلة لم تحصل إلا غزوات قصيرة في أراض مكشوفة وغارات سريعة تشنها زمر تركية يقودها بمعزل عن طغرل بك، ضباط سلاجقة»[2].

٢ ـ في عهد ألب إرسلان
إحتلال الكبادوك وأرمينيا

أ ـ الأتراك في الكبادوك (١٠٦٧)

ألب إرسلان (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢) ـ هو إبن أخ طغرل بك وخلفه وكان قائداً عسكرياً شجاعاً أمضى سنوات حكمه التسع «في التنقل على ظهر جواده وفي الحروب» سواء في الداخل أو الخارج. فحارب أولاً، في إيران وما وراء النهر أمراء وأعضاء أسرته الذين ثاروا إثر موت طغرل بك.

وفي أيام حكم ألب إرسلان حل محل حملات الغزو في آسيا الصغرى إحتلال للأراضي البيزنطية. وفي العام ١٠٦٤ إحتل خلف طغرل بك آني

2 Grousset, *Histoire des croisades*, I, «Introduction», p. XXVIII, XXIX.

وقارص العاصمتين الأرمنيتين اللتين فتحتا أبواب الأناضول أمام السلاجقة. فمنهما تمكنت الزمر التركية المهاجمة من ثم بلوغ قيصرية الكبادوك (١٠٦٧).

ب ـ رد الفعل البيزنطي (١٠٦٨ ـ ١٠٦٩)

إن هذه الإنتصارات التي أرعبت بيزنطية أحدثت فيها تصميماً على رد العدوان. وحاول الأمبراطور الحازم رومانوس ديوجينوس (١٠٦٧ ـ ١٠٧١) «ممثل الحزب العسكري الأناضولي» تطهير آسيا الصغرى من الزمر التركية التي إستقرت فيها. فجمع رومانوس على عجل جيشاً عديداً ولكنه متباين «يضم مجندين غير منضبطين ومرتزقة لم يكونوا معدين ليقوموا بمهام الفيالق الأناضولية القديمة» ووصل العام ١٠٦٨ على رأس جيشه حتى الحدود السورية ـ الكيليكية وإستولى على هيرابوليس في سورية الشمالية، ثم دخل العام ١٠٦٩ إلى أرمينيا الغربية. لكن في هذه الأثناء فإن الزمر التركية، التي تفادت حتى الآن خوض معركة مع الجيش البيزنطي، تقدمت حتى وسط فريجيا فنهبتها وراحت تسلب ايقونيوم (قونيا). وفي العام ١٠٧٠ هزم قائد بيزنطي وأسر بيد الترك قرب سيباست (سيواس) في حين كانت قدس في بلاد ما بين النهرين تصد هجومات الترك عليها.

ج ـ الإنتصار التركي الكبير في ملاذجرد

وفي العام ١٠٧٠ عاد ألب إرسلان من إيران بعدما نجح في قمع تمردات الأمراء السلاجقة في تلك البلاد فوصل إلى الأناضول وأمسك بقبضته زمام القيادة العسكرية. وبعدما خرّب المدينة المحصنة ملاذجرد البيزنطية قرب بحيرة وان وإجتاح ميليتين إرتد ضد أمير حلب المرداسي التابع للفاطميين فما كان من هذا الأمير إلا أن أعلن خضوعه لسلطة ألب إرسلان.

ومن جهته فإن الأمبراطور البيزنطي، الذي كان ينوي إستعادة أرمينيا، عاود إحتلال ملاذجرد (١٠٧١) حيث لم يلبث ألب إرسلان أن هاجمه إثر عودته من حلب. إن رومانوس، وقد خانه مساعدوه التركمان الذين إنضموا إلى أبناء جنسهم السلاجقة كما خانه أيضاً ضباطه، إستمر في القتال مع حفنة من الأوفياء فهزم وجرح وأسر (١٠٧١).

د ـ إحتلال أرمينيا (١٠٧١)

وعوض الإفادة من نصره باجتياح آسيا الصغرى، التي باتت بعد نكبة ملاذجرد مجردة من القوات البيزنطية، فإن ألب إرسلان إكتفى بإحتلال أرمينيا

وعـامل بمروءة أسيره البيـزنطي وأعـاده بعد مـدة قصيـرة في الأسـر إلى الأراضي اليونانية. وأدار ألب إرسلان ظهـره للأنـاضول ليمضي من جـديد نحـو الشرق حيث قتل العام ١٠٧٢ خلال معركة في ما وراء النهر.

«إن هزيمة ملاذجرد قد تكون أكبر كارثة في التاريـخ البيزنـطي... ولكن هنـا أيضاً لا بـد من الملاحـظة بأنـه إذا كانت معـركة مـلاذجرد جـرّت كل تلك النتائج التـاريخية الـوخيمة فـما ذلك إلا لأن الفـوضى داخل المجتمـع البيزنـطي زادت من إتسـاع الكارثـة... إن البيزنـطيين أنفسهم هم الـذين، بإنقسـاماتهم العبثيـة حالـوا دون حصـر الكـارثـة وبعـد أرمينيـا فتحـوا آسيـا الصغـرى عـلى مصراعيها في وجه الأتراك»[3].

هـ ـ تشكيل أول دولة أرمنية في طوروس (١٠٧١)

وبعد إقامـة الترك في أرمينيـا والكبادوك حصلت هجـرة أرمنية كبيـرة طلباً للجوء في جبال طوروس ـ كيليكيا ونحو ميليتين وقدس وأنطاكيا. وقد أفاد قـادة أرمن شجعان من أمثـال فيلاريتـوس (فـاهـرام) من إنهيـار الأمبـراطـوريـة البيزنطية فأسسـوا حوالي العـام ١٠٧١ في جنوب شـرق الأناضـول إمارة أرمنيـة قـوية كـانت تضم مدن طـرسوس ومـوبسوست وأنـازارب الكيليكية فضـلاً عن مـدن قدس وأنـطاكيا التي إنتـزعت من بيزنـطيـة العـام ١٠٧٧ و١٠٧٨. وكـان الحكم البيزنطي ينـظر بعين الـرضا إلى تشكيـل هذه الـدولة الأرمنيـة الفتية التي قد تكون مفيدة له لإعادة إحتلال محتملة لآسيا الصغرى.

«ففي أنطاكيا، كـما في قدس وسـائر المـدن البيزنـطية المحصنـة في المنطقـة وهي التجمعات الوحيـدة التي كانت مـا تزال صـامدة أمـام مدّ الغـزو التركي، كـانت الشعوب المسيحيـة تتطلع نحـو ذلك الأرمني (فـاهـرام) البـاسـل وكـأنـه مخلص... لكن كـان مستحيلاً أن يقبـل السـلاجقـة بـأن تقـوى هـذه الإمـارة الأرمنيـة المـزروعـة كـالإسفـين في ممتلكـاتهم والتي تقـطع عليهم الـطريق نحـو سورية. لـذا إستغل السلجـوقي سليمان إبن قـطلميش فاتـح الأناضـول غياب فـاهرام وإنقسـامات أسـرته لرشو بعض الخـونة فيفتحـوا لـه أبـواب أنـطاكيـا (١٠٨٥). فـإحتلها... في ٣ حـزيران ١٠٩٨، أي بعـد ١٣ عـامـاً، إنتزعهـا منه الصليبيون. فكان الإحتلال الأرمني لتلك المنطقة تمهيـداً للإحتـلال الصليبي

3 Grousset, *Histoire des croisades*, I, Introduction», p. XXXIII.

الفرنجي وسنرى لاحقاً أهمية هذا الواقع بالنسبة إلى الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارة قدس الفرنجية (١٠٩٧)»[4].

٣ ـ في عهد مَلِك شاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢)
فتح الأناضول الغربية وسورية

أ ـ أوج الأمبراطورية السلجوقية أيام ملك شاه

وفي أيام حكم ملك شاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) إبن ألب إرسلان وخلفه فإن الأمبراطورية التركية السلجوقية بلغت أقصى حدودها وذروة قوتها وإنطلاقتها الثقافية الكبرى. فحوالي نهاية حكم هذا السلطان الكبير كانت ممتلكاته الأرضية تضم إيران بكاملها وبلاد ما بين النهرين وسورية ومعظم آسيا الصغرى.

ومن حيث التنظيم السياسي كانت الأجزاء الثلاثة الكبرى من أمبراطورية ملك شاه التركية ـ السلجوقية أي إيران وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين يضم كل منها إمارات عدة أو ممالك يحكمها أمراء من السلالات التركية تابعون إلى حد ما للسلطان الكبير ويحملون، بحسب الأزمنة والأمكنة، لقب شاه (ملك) أو سلطان أو أتابك. وإلى جانب السلطان، وهو الرئيس الأعلى للأمبراطورية، يبرز شخص يحمل لقب أتابك هو بمثابة صاحب السلطة الفعلي. «وكان هذا اللقب (أتابك) يعطى للأمراء الترك الموكل إليهم تعليم صغار الأمراء. . . ويتألف هذا اللقب من كلمتين تركيتين: أتا ومعناها أب وبك أمير»[5]. عند وصول الأمير الصغير إلى العرش، وهو غالباً قاصر، يصبح الأتابك وصياً عليه وسيد الأمبراطورية الكلي القدرة.

ومن الناحية الدينية غلب العنصر السني في الأمبراطورية، بفضل حماية سلالة السلاجقة الذين كانوا هم أنفسهم سُنّة، على العنصر الشيعي الذي سبق أن تفوق في عهد سلالة البويهيين الإيرانيين الشيعة سلف الأتراك السلاجقة في بغداد.

وفي الميدان الثقافي لم يسجل حكم ملك شاه تراجعاً بل على العكس كان خيراً وحكيماً. وعلى مثال الغزاة الرومان الذين حضنوا الهللينية في الشرق

4 Grousset, *Histoire des croisades*, I, «Introduction», p. XLII, XLIII, XLIV.

5 Diehl et Marçais, *op. cit.*, p. 579.

وشجعوها فإن الغزاة السلاجقة الذين تكيفوا مع الثقافة العربية ـ الفارسية نصبوا أنفسهم حماة الثقافة الأمناء.

ب ـ الوزير الكبير نظام الملك (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢)

يعود الفضل في الإنطلاقة السياسية والثقافية في الأمبراطورية السلجوقية أيام حكم السلطان ملك شاه خصوصاً إلى وزير كبير وقوي هو نظام الملك الشهير وهو فارسي ولد في خراسان ومارس المهام نفسها أيام السلطان ألب إرسلان. وفي عهد ملك شاه، الذي كان صغيراً جداً لدى تسلمه الحكم، فإن نظام الملك، حامل لقب الأتابك، كان طوال عشرين عاماً (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) الرئيس الفعلي في الدولة. وكان عمل نظام الملك عظيماً سواء في إدارة الشؤون العامة أو في الميدان الفكري. ويتضمن مؤلفه «سياسة الحكم» (سياست نامة) الذي كتبه العام ١٠٩١ وأهداه إلى ملك شاه ثمرات التجربة الواسعة التي عرفها هذا الوزير الشهير. «ففي الجزء الأول من ذلك المؤلّف وهي نظرية خاصة، لكنها مزودة بطرائف مشوقة، يعرض الكاتب من جهة واجبات الأمير ومهام المحيطين به ومن جهة أخرى أساليب الحكم. وأما في الجزء الثاني فهو يقدم المعلومات الأكثر قيمة حول الفرق الدينية والهرطقات التي كثيراً ما حاربها نظام الملك. وهذا المؤلّف بإسلوبه ومحتواه يسجل نقطة مهمة في نمو أدب النثر الفارسي»[6].

وإن نظام الملك الذي أعطى دفعة كبيرة لدراسات الدين والحقوق «يدين بمجده خصوصاً إلى علماء الدين ورجال العلم الذين كرّمهم أكبر تكريم بانياً لهم المدارس في جميع المدن الكبرى في الأمبراطورية. . . وقد حملت إسمه «نظامية». . . وقد عمل آخر الفلاسفة المسلمين الكبار وهو الغزالي (وخراساني مثل نظام الملك) تحت حمايته في نيسابور أولاً ثم في نظامية بغداد»[7].

ج ـ ولادة السلطنة التركية ـ السلجوقية في نيقيا (١٠٨١)

وفي العام ١٠٧٨ إستولى نيكيفوروس بونياتيس الحاكم البيزنطي في عمورية في فريجيا على عرش بيزنطية. وفي محاولة لدعم مركزه وسلطته جند بأعداد كبيرة مساعدين أتراكاً قام معهم بإحتلال مدن الدردنيل وضفاف بحر مرمرة والبوسفور. ولم يلبث هؤلاء المرتزقة الأتراك، الذين وضعوا في نيقيا

6 Massé, «L'Iran musulman du VIIe au XVe siècle», dans *La Civilisation iranienne*, p. 190.
7 Brockelmann, *Histoire des peuples et des Etats islamiques*, p. 151, 152.

كحامية عسكرية أمبراطورية، أن سيطروا على المنطقة، فقطعوا المواصلات بين القسطنطينية وداخل الأناضول. وأكثر من ذلك تخلوا عن بونياتيس ومشوا في ركب طامح جديد إلى السلطة هو ميليسينوس الذي ظهر حديثاً في أيونيا. وبفضل مساعدة أحد قادتهم السلجوقي سليمان إبن قطلميش فإن ميليسينوس هذا إحتل بيتينيا ونيقيا حيث أقام سليمان مقره رسمياً (١٠٨١).

ومن هذه المستعمرة التركية ـ السلجوقية الأولى في آسيا الصغرى خرجت سلطنة نيقيا (١٠٨١ ـ ١١٥٤) وخليفتها سلطنة الروم في إيقونيوم أو قونيا (١١٥٤ ـ ١٣٠٢). وعلى أنقاض هذه السلطنة ستقوم بدءاً من العام ١٢٨٨ في بروسة ثم في أدرنة وأخيراً في القسطنطينية سلطنة الأتراك العثمانيين.

د ـ الإمارات التركية في إزمير وكبادوك (١٠٨١)

«وأما على بحر إيجه فإحتل الترك إزمير حيث إستقر فيها العام ١٠٨١ الأمير زاكاس وهو مغامر جريء أنشأ لنفسه بحرية إحتل بواسطتها الجزر الكبرى على ساحل آسيا. وفي غضون ذلك وفي شمال شرق شبه الجزيرة فإن أسرة دانيشمنديت التركمانية أسست في الكبادوك إمارة قوية حول قيصرية وسيواس وأماسيا كانت مستقلة في البداية عن أمير نيقيا السلجوقي ولا ترتبط إلا بالسلطان ملك شاه نفسه. إن تعدد تلك الإمارات المحلية، المنشأة في آن واحد من قبل الزمر التركمانية المتفرقة التي إتحدت لدى المد السلجوقي والتي بإسم السلاجقة كان يعمل كل منها لحسابه الخاص، زاد من صعوبة الهجوم المسيحي المعاكس.

صحيح أنه لدى تسلم ألكسيس كومنينوس عرش بيزنطية العام ١٠٨١ كان الترك فعلاً سيطروا على آسيا الصغرى من الفرات وحتى بحر مرمرة إلا أن سيادتهم هذه لم تكن نتيجة حرب منهجية ومنظمة سياسياً. فلم يحصل هنا ما حصل لسلطنة سلاجقة إيران مع طغرل بك وملك شاه... هكذا كان يبدو ساحل البحر الأسود مع طرابزون وساحل الأناضول الجنوبي حتى كيليكيا على أنهما ما يزالان في معظمهما تحت سلطة البيزنطيين. بل أكثر من ذلك ففي حين، وعلى مدخل البوسفور، كانت نيقيا محتلة من قبل الترك منذ ١٠٨١، هناك في عمق سورية أو من الجانب الآخر للفرات كانت أنطاكيا وقدس ما تزالان في أيدي الحاميات البيزنطية أو قادة أرمن مبدئياً هم رعايا بيزنطية: بقيت انطاكيا على هذا الوضع حتى العام

١٠٨٥ وقدس حتى العام ١٠٨٧. وفي قلب هضبة الأناضول نفسها... فكانت كثرة من المدن البيزنطية المحصنة ما تزال تقاوم...

غير أن أكثر المدن تحصيناً ما لبثت أن إضطرت إلى الإستسلام بعدما خربت حولها الأراضي بفعل الغزوات الدورية التي كانت تشنها الزمر التركمانية... أضف إلى ذلك أن بعض القادة الترك يبدو أنهم إستغلوا الضائقة الإجتماعية التي يعاني منها الشعب الأناضولي. وكما يلاحظ ذلك زيترستين، فإن معظم سكان الأرياف وقعوا تحت رحمة كبار ملاكي الأراضي وكان العديد من الأراضي الزراعية يقوم بزراعتها الأرقاء. وسرعان ما حرر سليمان إبن قطلميش أولئك الأرقاء مقابل دفع جزية معينة فكسب بذلك تعاطفهم القوي..

إن هذه الإعتبارات تفسر لنا نتيجة حملة آل كومنينوس الصليبية اللاحقة. ففي المناطق التي ظلت مزروعة ومدن الساحل، في بيتينيا وميسيا وإيونيا فإن الشعب اليوناني صمد برغم فجأة الإحتلال التركي... أما على الهضبة الأناضولية في المقابل فإن الأرض نفسها تحولت، ففريجيا القديمة صارت على ما هي عليه اليوم جزءاً من السهب الكيرغيزي»[٨].

هـ ـ إحتلال دمشق وفلسطين على يد الأمير السلجوقي توتوش (١٠٧٩)

إن سورية الجنوبية وكذلك دمشق، كما رأينا، وحتى قيام سلطة السلاجقة في بغداد ظلتا تابعتين لخلافة القاهرة الفاطمية في حين أن إمارة حلب في سورية الشمالية، التي كانت تحت حكم الأمراء المرداسيين العرب، كانت تتقلب مع الأحداث في ولائها تارة القاهرة وطوراً بغداد أو بيزنطية.

ومنذ العام ١٠٧١ إنتزع ضابط تركي هو عزيز بن حبق، بمبادرة منه بإسم السلطان ألب إرسلان، القدس وفلسطين من فاطميي القاهرة ثم وفي العام ١٠٧٦ إنتزع دمشق ومنطقتها، وعندما هاجمه جيش فاطمي جاء من مصر وحاصره في دمشق، إستنجد إبن حبق بالأمير السلجوقي توتوش شقيق السلطان الأكبر ملك شاه. ولما شعر الفاطميون بإقتراب هذا الأمير رفعوا الحصار عن دمشق (١٠٧٩). ولكن عند دخول توتوش الى دمشق كسيد على عزيز، أقدم على إغتيال

8 Grousset, *Histoire des Croisades,* I, «Introduction», p. XXXVII, XXXVIII, XXXIX.

هذا الأخير وأصبح سيداً أوحد على سورية الجنوبية بكاملها مع دمشق عاصمة لها (١٠٧٩).

و ـ فتح حلب وسورية الشمالية (١٠٨٦).

وفي غضون ذلك فإن الأمير العربي شرف الدولة مسلم، الذي كان يحكم الموصل، انتزع حلب من قبيلة الأمراء المرداسية العرب الذين كانوا يحتلونها لنصف قرن خلا وجمع تحت قيادته كل سورية الشمالية (١٠٧٩). وعندما احتل سليمان ابن قطلميش، قائد سلاجقة آسيا الصغرى، أنطاكيا العام ١٠٨٥ فإن أمير الموصل، الذي ادعى حق السيادة على هذه المدينة، شن هجوماً مضاداً على قطلميش. فنشبت بينهما معركة كبيرة قرب أنطاكيا أدت الى هزيمة الأمير العربي وموته (١٠٨٥). وحاصر السلجوقي قطلميش حلب، التي ناشدت أمير دمشق السلجوقي توتوش كي يتدخل. فنشبت معركة بين الأميرين السلجوقيين، وهما أبناء عم، قرب حلب حيث هزمت قوات قطلميش وقتل هو نفسه خلال المعركة (١٠٨٦).

«وكان لموت سليمان ابن قطلميش نتائج هامة جداً. ففاتح الأناضول مات فجأة من غير أن يترك سوى ولد قاصر. . . ناهيك أنه بعد معركة حلب التي جرت بين الأخوة والتي أدت الى نهاية سليمان ابن قطلميش المأساوية فإن خندقاً من الدم بات يفصل بين سلاجقة إيران وسورية وسلاجقة الأناضول. ولن تتوحد بعد ذلك أبداً القوى السلجوقية لتتمكن من التصدي للحملة الصليبية. . . ان هذا الانقسام سوف يشل القوة التركية عشية الاجتياح الفرنجي»[9].

ز ـ التجزئة السياسية لسورية السلجوقية (١٠٨٧)

إن النصر الباهر في حلب لم يفد الظافر توتوش، الذي كان تعاظم سلطته يقض مضاجع أخيه البكر السلطان ملك شاه. فغادر هذا الأخير عاصمته أصفهان ووصل الى حلب العام (١٠٨٦)، التي كانت ما تزال قلعتها تقاوم توتوش، ففتحت أبوابها أمام السلطان الكبير الرئيس الأعلى للأمبراطورية. وبدأ ملك شاه بإعادة توزيع عامة للإمارات التركية في سورية، فأعطى إمارات حلب وقدس وأنطاكيا لثلاثة من مساعديه (١٠٨٧). وأما

9 Grousset, *Histoires des Croisades*, I, «Introduction», p. XLVI.

توتوش فاقتصر نفوذه على منطقتيه السابقتين دمشق وفلسطين مع تعيين أمير تركي مساعداً له في القدس (١٠٨٧).

«إن ملك شاه الذي حال سلفاً دون قيام المملكة التركية في سورية والتي كانت تنزع الى أن تكون لصالح أخيه الأصغر توتوش، كان يبدو وكأنه عمل لإنشاء أمبراطورية سلجوقية موحدة كبرى تمتد من بحر الخزر حتى أنطاكيا. . . وفي الواقع وفي حين أن دخوله الى مسرح الأحداث قد وطد حالياً سلطة الحكم السلجوقي المركزي. . . إلا أن مبادرته هذه سيكون لها على المدى القصير نتائج غير متوقعة. وكما أن دخول أخيه توتوش الى مسرح الأحداث العام ١٠٨٦ أوقف طوال سنين عديدة ولادة سلطنة آسيا الصغرى وأعاد إغراق تلك البلاد في الفوضى الاقطاعية كذلك فإن تدخل ملك شاه ضد توتوش حال دون إقامة سلطنة تركية سورية وأغرق سورية في التجزئة الاقطاعية: وهو وضع استفادت منه، هنا أيضاً، الحملة الصليبية. وأما إبقاء الأمبراطورية السلجوقية الشاسعة الأطراف في وحدة أكبر، كما حققها في ذلك العصر ملك شاه، فقد كان هذا وهماً سرعان ما انهار غداة موت هذا السلطان الكبير»[١٠].

٤ ـ في عهد برقياروق (١٠٩٢ ـ ١١٠٥)

تجزئة الأمبراطورية السلجوقية وتفككها

إن موت ملك شاه (١٠٩٢) وما أعقبه من صراعات حول خلافته أدى الى تجزئة الأمبراطورية التركية ـ السلجوقية وتفككها. فقامت على أنقاضها، وكما في الماضي على أنقاض أمبراطورية الاسكندر الكبير، دول مستقلة سواء في آسيا الصغرى أو بلاد ما بين النهرين أو سورية أو فارس أو أذربيجان، إلخ. . . وكان كل منها تحت حكم أتابك أو أمير تركي، كانوا أصلاً في خدمة السلاجقة.

أ ـ ثورة توتوش (١٠٩٣)

ما إن توفي ملك شاه حتى قرر أخوه توتوش، حاكم دمشق والذي أقصي عن حلب خلال عملية توزيع الاقطاعات العام ١٠٨٧ من قبل أخيه الراحل، الافادة من الاضطراب الحاصل في أصفهان لعزل إبن أخيه الشاب

10 Grousset, *Histoire des Croisades*, I, «Introduction», p. XLVII, XLVIII.

برقياروق (١٠٩٢ ـ ١١٠٥)، وهـو ابن ملك شاه البكـر وخلفه، عن العـرش. وبدعم من أمـراء حلب وأنطاكيا وقـدس الذين أجبـرهم على الانضمـام اليه، استولى توتوش على الموصل (١٠٩٣) ودخل فارس عن طريق أذربيجان. لكن عندما تخلى عنه أميرا حلب وقدس اللذان تبعاه مكرهين، اضطر الأمير توتوش الى التراجع فعاد بسرعة الى دمشق في حين دخل برقياروق الى بغداد ظافراً (١٠٩٣).

ب ـ هزيمة توتوش وموته (١٠٩٥)

عـاود توتـوش الكرة العـام ١٠٩٤ فأحـرز قرب حلب نصـراً شامـلاً على أميـري حلب وقدس اللذين خـانـاه العـام ١٠٩٣ وأمـر بـإعـدامهـما. وبعـدمـا استسلمت له قدس مشى الى فـارس من جديـد فدانت لـه أذربيجان بـالخضوع واحتـل همذان وراي. إلا أن تـوتوش، الـذي خانـه قومـه مجـدداً بسبب عـزمـه وقسوته المفرطة، هزم في معركة قرب راي وقتل (١٠٩٥).

ج ـ اقتسام أمبراطورية السلاجقة (١٠٩٦)

إن الظافر برقياروق، سيد إيران وبغداد، كان ضعيف الشخصية وطيب القلب ولم يسعَ الى الإفادة من نصره بضم سوريا التي اصبحت بلا حاكم إثر هزيمة توتوش وموته في فارس. بل على العكس فإنه تمّ الإعتراف بولدي توتوش، رضوان تولى الملك في حلب ودقّاق تولى الملك في دمشق (١٠٩٥). حتى أن برقياروقاً عيّن كيليج إرسلان ابن سليمان ابن قطلميش حاكماً على آسيا الصغرى بعدما بقي شبه أسير في فارس منذ هزيمة ابيه وموته (١٠٨٦). وأخيراً فإن السلطان الكبير منح أخاه الأصغر سنجر، إمارة خراسان وما وراء النهر (١٠٩٦).

د ـ الدويلات التي خلفت أمبراطورية ملك شاه.

«ففي ذلـك التاريـخ كانت الأمبـراطوريـة السلجـوقيـة مقسمـة إذن تحت السيـادة الاسمية فقط للسلطان الضعيف بـرقياروق الى خمس ممـالك متنـافسـة: سلطنة فارس وبغداد، ويحكمها السلطان بـرقياروق نفسـه، والمملكة المكـونة في خـراسان ومـا وراء النهر لصـالح أخيـه سنجر، ومملكتي حلب ودمشق التـوأمـين ويحكمهما إبنا تـوتوش رضـوان ودقاق، وأخيـراً سلطنة الأنـاضول (وهي سلطنـة نيقيـا ثم إيقونيـوم أو قـونيـا اليـوم) ويحكمهـا كيليـج إرسـلان إبن سليمـان إبن قـطلميش. . . وهكذا، وكـما نرى، عشيـة الحملة الصليبية الأولى الى الشـرق،

فإن الاقتسامات العائلية حطمت القوة السلجوقية، سيف الإسلام في تلك الأيام»[11].

إن هذه القسمة العام ١٠٩٦، عوض أن تضع حداً للخلافات داخل الأسرة السلجوقية، فإنها على العكس أججتها بدفعها مختلف الأمراء الذين يحكمون هذه الممالك للتقاتل فيما بينهم بهدف زيادة مناطق نفوذ كل منهم. فمن العام ١٠٩٩ الى العام ١١٠٤ نشبت حروب أخوية بين هؤلاء الإخوة وأنهكت قواهم وأدت الى تعديل جغرافي لسلطنة فارس حيث أن أخاً آخر لبرقياروق، وهو محمد والذي لم يحصلْ إلا على القليل من قسمة العام ١٠٩٦، فعاد وحصل على أذربيجان وأرمينيا وديار بكر والموصل.

ولا بد أن نضيف الى هذه المجموعة من الامارات التركية ـ السلجوقية شبه المستقلة تحت السيادة الإسمية لرئيس الأسرة السلجوقية برقياروق إمارتين أخريين أولاهما، كما رأينا تركية ولكنها غير سلجوقية هي إمارة أسرة دانيشمندي التركمانية التي تأسست حوالي العام ١٠٨٠ في الكبادوك حول قيصرية وسيواس وكانت تنافس السلطنة السلجوقية في نيقيا وأما ثانيتهما فعربية هي إمارة قبيلة بني مَزْيَد وكانت قائمة على الضفة الغربية لنهر الفرات.

إن الشيخ صدقة (١٠٨٦ ـ ١١٠٧) أمير بني مزيد العربي والمستقل حوالي العام ١٠٨٠، بنى العام ١١٠١ قرب بابل القديمة مدينة الحلة وجعلها عاصمته. وهذه المملكة العربية الجديدة التي امتدت من هيت الى الكوفة وواسط سوف تشكل خطراً كبيراً على الهيمنة التركية وتصبح محركة الثورة العربية ضد السلاطين السلاجقة وأمرائهم الأتراك. ومن أجل هذا الهدف فإن أمراء الحلة العرب لن يترددوا عن التحالف مع الصليبيين.

هـ ـ إعادة احتلال فلسطين على يد الفاطميين (١٠٩٨) طرابلس مستقلة.

إن خلفاء مصر الفاطميين، الذين بفضل سيطرتهم على البحر استطاعوا البقاء على الساحل اللبناني ومستفيدين من ضعف أمراء سورية السلاجقة، انتزعوا القدس ومعظم أجزاء فلسطين (١٠٩٨) من الأتراك السلاجقة. وفي المقابل فإن مدينة طرابلس، المستقلة عن القاهرة منذ منتصف القرن الحادي عشر، شكلت تحت حكم ابن عمار، وهو قاض فاطمي سابق وخلفائه

11 Grousset, *Histoire des Croisades,* I, «Introduction», p. LI et LII.

(١٠٧٠ ـ ١١٠٩)، «إمارة مزدهرة ومثقفة اشتهرت بمدرستها المجهزة بمكتبة تضم أكثر من ١٠٠,٠٠٠ كتاب».

وعلى غرار تجزئة الأمبراطورية التركية ـ السلجوقية فإن «تجزئة سورية المسلمة عشية الحروب الصليبية كان أحد العوامل الأساسية التي أدت الى انتصار الصليبيين. . . وإن تاريخ الحملة الصليبية الأولى وحوليات مملكة أورشليم في نصف القرن الأول من قيامها، كلها أحداث تؤكد هذا الواقع»[١٢].

و ـ تنافس أمراء السلالة السلجوقية الأتراك في آسيا الصغرى

وفي آسيا الصغرى فإن السلطنة السلجوقية في نيقيا كانت في ذلك التاريخ ضعيفة كسائر الدول السلجوقية، سورية والعراق وإيران. فمنذ الوفاة المأساوية لمؤسسها سليمان إبن قطلميش (١٠٨٦)، الذي هزمه وقتله توتوش وحتى تحرير ولده كيليج إرسلان (١٠٩٢) الذي كان قد احتجزه ملك شاه في شبه أسر في فارس، فإن أميري إزمير والكبادوك المحليين كانا قد أصبحا مستقلين عملياً. فيما كيليج إرسلان، وقد آلى على نفسه تنفيذ العمل الذي بدأه أبوه، سعى الى استعادة الأراضي التي استولى عليها الأمراء الأتراك المجاورون على حسابه. ولتحقيق هذه الخطة لم يتردد في التحالف مع بيزنطية ضد أبناء قومه وأقاربه لا سيما ضد الأمراء الأتراك الدانيشمنديين الذين كانوا يحكمون الكبادوك.

«ومنذ ذلك العصر صار اليونان يشاركون في تلك الصراعات المضطربة بين أمراء السلالة السلجوقية المسلمين. فالأمير كيليج إرسلان، سعياً الى هزيمة حميه تازكاس أمير إزمير، لم يتورع عن الإستعانة بالأمبراطور البيزنطي الكسيس كومنينوس. وكان هذا الأمير على نزاع أيضاً مع الأتراك الدانيشمنديين، الذين كانوا في ذلك الوقت عينه، قد أسسوا مملكة عند حدود أرمينيا وجعلوا مدينة سيواس عاصمة لها»[١٣].

ز ـ ضعف الشرق التركي ـ الإسلامي

«من هذه الوقائع ينجم أنه وفي حوالي العام ١٠٩٥ فإن الزخم السلجوقي نحو الغرب قد توقف. . . إذ وبفعل الانقسامات في صفوف الترك

12 Grousset, *Histoire des Croisades*, I, «Introduction», p. LV.

13 Diehl et Marçais, *Le monde oriental de 395 à 1081*, p. 580.

فإن ميزان القوى بين البيزنطيين والأتراك مال الى التعادل من جديد. وإذا قدر للبيزنطيين أن يحصلوا على مساعدة خارجية من وزن الحملة الصليبية الأولى فإن هذا الميزان سوف يميل مرة جديدة لصالح الأمبراطور البيزنطي»[١٤].

لذا وعندما سيجتاز الصليبيون المتدفقون من الغرب الأقصى البوسفور متجهين الى الأرض المقدسة فإنهم لن يجدوا أمامهم في الشرق التركي - الإسلامي إلا مقاومة لا تذكر. وفي العام ١٠٩٧ فإن جيش الفرنجة الاقطاعي، برغم تركيبه غير المتجانس والفوضى التي كانت تسود صفوفه، نجح في الاستيلاء على نيقيا بعد شهر من الحصار. وفي العام ١٠٩٨ اجتاز هذا الجيش آسيا الصغرى واحتل أنطاكيا وسورية. وفي العام ١٠٩٩ استولى على أورشليم وفلسطين جاعلاً منهما مملكة لاتينية مسيحية.

14 Grousset, *Histoire des Croisades, I, «Introduction», p. LVII et LVIII.*

II. مصر الفاطمية والأمبراطورية البيزنطية من العام ١٠٥٥ الى العام ١٠٩٨

في حين كان العراق وفارس وآسيا الصغرى وسورية وفلسطين تتطور، كما رأينا، ما بين العام ١٠٥٥ و١٠٩٨ في ظل سيادة الأتراك السلاجقة، بقيت مصر وبيزنطية وحدهما من دون سائر كل دول الشرق الأدنى خارج دائرة نفوذ هؤلاء المجتاحين الجدد.

١ ـ مصر الفاطمية (١٠٥٥ ـ ١٠٩٨)

منذ العام ١٠٥٥ كان الوضع في مصر قد تعقد وسبب المتاعب للخليفة المستنصر (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤) بسبب تراخيه وسوء حكم وزيره وربما أيضاً بسبب الاضطراب السياسي الذي حمل السلاجقة الى السلطة في بغداد والذي أدت انعكاساته الى خضة في وادي النيل. ويجدر التذكير بالتدخل الأخرق الذي قام به المستنصر في بغداد حيث قمع طغرل بك بسرعة تمرداً ضده كانت وراءه الدبلوماسية المصرية (١٠٥٥).

أ ـ فوضى واضطرابات وتمردات (١٠٦٦ ـ ١٠٧٣)

وأما في الداخل فقد راحت النكبات ترهق مصر. فالوزراء كانوا يستبدلون بسرعة فائقة إذ وفي خلال ست سنوات (١٠٦٠ ـ ١٠٦٦) توالى سبعة وعشرون وزيراً في مناصب الحكم وكان كل منهم أضعف من الآخر وأعجز منه. وقد أوقف العديد منهم وسجن وجلد ضرباً بالعصي او قتل أو لاذ خلسة بالفرار.

ومن جهة أخرى نشب نزاع بين المرتزقة الترك وحرس الخليفة من الزنج أشعل حرباً أهلية في مصر دامت أربع سنوات. وانتصر الترك في هذه الحرب

وتمادوا في وقاحتهم ومطالبهم بلا حدود وأصبحوا يتصرفون وكأنهم في بلد محتل: فأجبروا الدولة على رفع رواتبهم من ٢٨,٠٠٠ دينار الى ٤٠٠,٠٠٠ دينار وانتشرت مجاعة دبت العبث والهلع بشكل مخيف نتيجة تدني منسوب مياه النيل (١٠٦٥) فأصبح القمح والخبز يباعان بأسعار خيالية واضطر المصريون لأكل الكلاب والقطط حتى أنهم مضوا الى حد استهلاك لحم البشر.

وكانت مطالب الجنود الأتراك على اطراد دائم ولم تعد خزينة الخليفة الفارغة تكفي للإيفاء بمطالبهم ففرضوا على الخليفة بيع كنوز القصر الملكي. وراحوا ينهبون قصور الخليفة وأحرقوا مكتباتها، وقد يكونون حذوا حذو أنسبائهم السلاجقة في بغداد عندما استأثروا بالسلطة كاملة في مصر. وقد بسط قائدهم ناصر الدولة المستقر في الاسكندرية منذ العام ١٠٦٩ سلطته على كامل مصر السفلى وأمر بأن تتلى خطب يوم الجمعة في مساجد الاسكندرية والمدن الكبيرة في الدلتا على اسم الخليفة العباسي. وفي العام ١٠٧١ سلمت قيادة حرس الخليفة في القاهرة الى أحد ضباط ناصر الدولة. وقد أدى اغتيال ناصر الدولة هذا العام ١٠٧٣ على يد بعض الضباط الأتراك من جيشه الى زيادة البلبلة الفوضوية التي كانت تعم البلاد بأسرها وفي جميع القطاعات.

ب ـ استبداد بدر الجمالي (١٠٧٤ ـ ١٠٩٤)

لم يعد حكم الخليفة المستنصر سوى حكم ـ ظل وكان على وشك أن يخلع أو يقتل فاستنجد بأحد قادته الذي كان يحكم في سورية وهو بدر الجمالي وزوده بمطلق الصلاحيات (١٠٧٣). وكان الجمالي هذا، وهو من أصل أرمني، حاكماً على دمشق منذ العام ١٠٦٣ حيث شكل جيشاً (١٠٦٨) جنده من صفوف مواطنيه الأرمن. ولما استدعاه الخليفة سراً أبحر الجمالي الى مصر مصطحباً فصيلاً من جيشه وظهر فجأة في القاهرة العام ١٠٧٤.

«ومن غير إضاعة الوقت بادر بدر الجمالي الى توطيد قوته. وقد استقبله الضباط بكل ترحاب من غير أن يخطر ببالهم أنه استدعي من قبل الخليفة ورد لهم بدر التحية بأن دعاهم الى وليمة حيث قتلهم جميعاً. وقد كانت تلك مكيدة مدبرة بعناية وهي تذكرنا بالوليمة الشهيرة المماثلة التي تخلص خلالها العباسيون في دمشق من جميع أعضاء الأسرة الأموية. أما وقد قتل الضباط فقد سهل بعد ذلك تسريح الجنود الزنج والبربر والترك ممن اتهموا بالاشتراك في الأحداث المؤسفة التي وقعت، واستبدلوا بجنود بدر الجمالي الأرمن: ونحن

نعلم أن العديد من الأرمن كانوا في جيش الجمالي وقد ظلوا على الأرجح مسيحيين نظراً لوجود أحد البطاركة معهم»[1].

وبعدما أصبح بدر الجمالي كبير الوزراء وقائداً أعلى لجيش الخليفة حكم مصر طيلة عشرين عاماً كسيد مطلق وإنما حكيم. وما يزال إصلاحه الإداري يشهد عليه وهو قائم الى اليوم بخطوطه الكبرى. وفي مجال تعزيز سلطته على أكمل وجه تجنباً لمحاذير مؤامرات البلاط التي كان الخلفاء السابقون من ضحاياها عمد الجمالي الى وضع الخليفة في الإقامة الجبرية في القصر فكان لا يسمح له بالخروج إلا في الاحتفالات الرسمية. وأعدم العديد من الشخصيات الهامة التي أسهمت في نزاعات السنوات السابقة. ولكن وفي حين عاد الأمن الى البلاد كان البؤس ما يزال يخيم عليها كما أن الأمن كان ضعيفاً نسبياً في المحافظات. لذا كان كل هم هذا الوزير الجديد أن يزرع الثقة في نفوس المزارعين.

وبدأ الجمالي فوراً بإعادة الأمن الى المحافظات. فهزم قبيلة بربرية قوية هي اللواطة، وكانت تتألف من ٤٠,٠٠٠ خيّال يجتاحون الدلتا ويثيرون الهلع في السكان، وشتت شملهم إثر معارك دامت ثلاث سنوات (١٠٧٤ ـ ١٠٧٧) ثم اقتحم الاسكندرية (١٠٧٧). وأما في مصر العليا فهزم فيلقاً من اللواطة ومجموعة من القبائل العربية العام (١٠٧٧) شرّ هزيمة. وفي الخارج لم يعد بوسع السيادة الفاطمية، التي تأثرت من جراء الأزمة الداخلية الخطيرة، أن تفرض نفسها. ولم تعد اليمن ومدن الحجاز المقدسة تستفيد من حصتها السنوية من توزيعات القمح المصري بعدما أصبحت مصر الجائعة تفتقر اليه فاتجهت منذ العام ١٠٧٠ الى السلطان السلجوقي في بغداد فسارع الى ارسال هبة ٣٠,٠٠٠ دينار لها على الفور. وأما سورية التي تركت لشأنها ككل مرة فقد تحولت الى فسيفساء من المدن والمناطق والقبائل المستقلة. وأعلنت المدن الحصينة، التي كان بدر يحكمها عندما كان في سورية باستثناء عكا وعسقلان، استقلالها بعد رحيله الى القاهرة. ولم يكن وارداً إعادة احتلالها، على الأقل في الوقت الحاضر.

«لقد تجزأت سورية نهائياً، وشيئاً فشيئاً، على مثال إسبانيا في ذلك العصر نفسه، سوف تقسم الى عدد لا يصدق من الإمارات الصغيرة. كل

1 *Wiet, L'Egypte arabe*, p. 248.

هذه السلالات، التي كانت مطامعها على قدر عدم انضباط رعاياها، راحت تشن نزاعات لا تعرف الرحمة ضد بعضها بعضاً»[2]. وقد أسهمت هذه الصراعات الداخلية فضلاً عن ضعف مصر الفاطمية في مساعدة الأتراك السلاجقة على احتلال المدن السورية «كما أن الخلافات المستحكمة بين المدن الفينيقية في الماضي قدمت أفضل خدمة الى الاسكندر الأكبر بعد معركة إيسوس» (ويت).

ومنذ العام ١٠٧١ وبعدما هدد أمير حلب العربي المرداسي من قبل السلاجقة أعلن خضوعه لهؤلاء السادة الجدد. وفي السنة نفسها احتلت أورشليم على يد ضابط تحت إمرة القائد التركي عزيز. وفي العام ١٠٧٢ استولى عزيز على طبريا وعكا واعترف بخليفة القاهرة الفاطمي بسبب تمسك سكان هاتين المدينتين بالعقيدة الشيعية. «فالأسياد المحليون، برغم اقتناعاتهم الشخصية، فإنهم ملزمون بمراعاة آراء رعاياهم»[3]. ولهذا السبب فإن أميري مدينتي صور وطرابلس، حيث العناصر الشيعية موجودة بكثافة، احتفظا حتى بعد خضوعهما للسلاجقة بعلاقات وثيقة مع الحكم في القاهرة (١٠٧٥).

وبعد الاستيلاء على دمشق (١٠٧٦) اجتاح القائد التركي عزيز على رأس جيش من التركمان والترك والعرب مصر. فجمع بدر الجمالي بأقصى سرعة جيشاً كبيراً ونجح في خرق جيش عزيز بأن إستمال اليه الجنود العرب في صفوفه وهزمه فيما فر جنوده (١٠٧٧). وقد شجعت هزيمة الأتراك هذه المدن السورية الكبرى على الاعتراف مجدداً بالسيادة الفاطمية. حتى أنها دفعت ببدر لاجتياح سورية. وفي العام ١٠٧٨ حاصرت القوات الفاطمية دمشق ولكن الأمير السلجوقي توتوش، وكان قد وصل لتوه من حلب، بلغ دمشق وطرد الجيوش الفاطمية من حولها وقتل عزيزاً وانفرد بحكم البلاد (١٠٧٨).

وفي العام ١٠٩٤ ترك موت الخليفة المستنصر ووزيره القوي الأمبراطورية الفاطمية مقتصرة على مصر ومضطرة للدفاع عن نفسها ضد مطامع الأتراك السلاجقة التوسعية. وكان هؤلاء السلاجقة، الذين سيحكمون الشرق لأمد طويل، قد باتوا سادة سورية وبلاد ما بين النهرين وإيران وأرمينيا والأناضول. وبعد الفرس والعرب وطدوا سيادتهم على الشرق ظاهرين بمظهر

2 Wiet, *op. cit.*, p. 238.
3 Wiet, *op. cit.*, p. 252.

المدافعين عن الإسلام في وجه الصليبيين المسيحيين، هؤلاء الغزاة الغربيين الجدد.

وهكذا وبعد عرب الجزيرة العربية وسورية (الأمويين) وبعد العرب ـ الإيرانيين في بغداد (عباسيين وبويهيين)، ممن شاخوا وأنهكوا وزالوا تدريجاً كأعراق أمبراطورية، فإن عرقاً جديداً هو العرق التركي، غريباً عن الشرق الأدنى، من حيث موطنه الأصلي، سيحكم عالم الشرق الأدنى حتى مطلع القرن العشرين.

٢ ـ الأمبراطورية البيزنطية من العام ١٠٥٥ الى ١٠٩٨

أ ـ حتى العام ١٠٥٥

ومنذ ضياع سورية ومصر اللتين غزاهما الإسلام العربي الناشىء وحتى ارتقاء الأتراك السلاجقة سدة الحكم في بغداد أي طوال أربعة قرون تقريباً (٦٤٠ ـ ١٠٥٥) فإن تاريخ الأمبراطورية البيزنطية التي تقلصت مساحتها الأرضية كثيراً، كان سلسلة متصلة من الحروب على جميع الجبهات: في آسيا حروب ضد العرب وفي أوروبا ضد الصقالبة والبلغار والذين أصبحوا يشكلون خطراً مهدداً بدءاً من القرن الثامن.

وتحت حكم الأباطرة الرافضين عبادة الأيقونات (٧١٦ ـ ٨٤٢) فإن الصراع ضد العرب والبلغار استمر بنجاح. وللحد من نفوذ الاكليروس، وبخاصة الرهبان الذين كانوا عن طريق الأيقونات والذخائر يحدثون أثراً تعصبياً في نفوس الشعب ويوجهونه وفق ما يناسبهم ضد الأساقفة والبطاركة والأباطرة أنفسهم، صدر منشور أمبراطوري العام ٧٣٠ وانعقد مجمع العام ٧٥٤ منعا إستخدام الصور والأيقونات والذخائر في الكنائس.

لكن تلك المقررات أزعجت روما فدعت الى عقد مجمع ديني مضاد (٧٣١) ألقي خلاله الحرم على ناكري عبادة الأيقونات مما أسهم في اتساع القطيعة بين بيزنطية والكنيسة الرومانية وإيطاليا. وبعد ذلك بقليل عندما شعرت البابوية بأنها مهددة من قبل اللومبارد البرابرة استنجدت بالفرنك. وفي العام ٧٥٦ حوّل الملك الفرنكي بيبان لو بريف البابوية الرومانية الى دولة أرضية قوية ولكن تابعة لسلطته. وفي العام ٨٠٠ قطعت روما علاقتها علناً مع بيزنطية ومنحت ملك الفرنك لقب الأمبراطور وأعلنت شارلمان ابن بيبان وخليفته أمبراطوراً على الغرب.

وفي العام ٨٤٣ إنعقد مجمع ديني في القسطنطينية ووضع حداً للنزاع القائم حول الصور فألغى كل القوانين التي تحارب عبادة الصور. وإن هذا القرار الذي سمي «بإعادة الأرثوذكسية القويمة» تحتفل به كل سنة في ١١ آذار الكنيسة اليونانية.

وفي أيام الأباطرة المقدونيين (٨٦٧ ـ ١٠٥٧) الذين كانوا كلهم تقريباً عسكريين ممتازين شهدت الأمبراطورية أمجد فترة من تاريخها منذ عصر يوستينيانوس (٥١٨ ـ ٥٦٥). وقد زادت الجيوش البيزنطية الظافرة مساحة أراضيها كما عرفت الحضارة البيزنطية في الوقت نفسه «عهدها الذهبي» الثاني.

وفي عهد بازيليوس الأول (٨٦٧ ـ ٨٨٦) طرد العرب من جزر البيلوبونيز والجزر الأيونية. وتحت حكم رومانوس الثاني (٩٥٩ ـ ٩٦٣) ونيكيفوروس فوكاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩) وجان تزيميسكيس (٩٦٩ ـ ٩٧٥) فإن كريت وقبرص وطرسوس وكيليكيا وأنطاكيا وقدس وحلب إنتزعت جميعها من أيدي المسلمين. وفي أيام بازيليوس الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) إحتل جزء من أرمينيا. وفي أيام قسطنطين مونوماكوس التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤) تم إحتلال آني عاصمة أرمينيا وضمت البلاد بأكملها الى الأمبراطورية. هكذا وفي حوالي العام ١٠٥٤ كانت الأمبراطورية البيزنطية قد إستعادت بنيتها الأرضية وتوطدت بقوة.

وخلال فترة النهضة هذه مد مجد حضارة الأمبراطورية ومؤسساتها العسكرية والدبلوماسية نفوذه السياسي والديني الى الخارج. وقد إستهوت الروس، الذين كانوا حتى ذلك الوقت أعداء، الحضارة اليونانية. حتى أن الأميرة الروسية أولغا أرملة أمير كييف الكبير حضرت الى القسطنطينية وتلقت العماد فيها (٩٥٧). كما أن الأمير الكبير فلاديمير تزوج من إحدى شقيقات الأمبراطور (٩٨٨) وإهتدى الى الدين المسيحي وفرضه على رعاياه. فغدت كييف الروسية وكأنها توأم للقسطنطينية.

ب ـ القطيعة النهائية بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما (١٠٥٤)

بيد أن العداء بين كنيستي القسطنطينية وروما كان آخذاً بالتصاعد أكثر فأكثر وكان نزاع حاد قد نشب العام ٨٥٧ بين البطريرك فوتيوس والبابا يوحنا الثامن وقد تطلب جهداً كبيراً لاخماده.

ثم قام نزاع جديد، كما كان يحصل غالباً، حدا بالبطريرك ميخائيل

كيلولاروس الى إقفال كنائس اللاتين في القسطنطينية ومصادرة أديرتهم (١٠٥٣). مما جعل القاصد الرسولي الكردينال اومبرت نظير البطريرك في تعنته وعنفه يرفض إصلاح أي رأب للخلاف. وراح يتصرف كآمر وناهٍ لا كقاصد رسولي فوضع على مذبح كاتدرائية آيا صوفيا حرماً كنسياً ضد البطريرك كيلولاروس. ورداً عليه دعا هذا البطريرك الى مجمع ديني إتخذ قراراً بحرم القاصد الرسولي (١٠٥٤)، وعندها كرست القطيعة نهائياً بين الكنيستين. ولما كانت تلك الأحداث قد تكررت مراراً في الماضي فإن معاصريها لم يعيروها أهميّة كبيرة ولم يسع أحد الى رفع ذينك الحرمين. إن هذا النزاع الحاصل العام ١٠٥٤ كان بداية القطيعة التي ما تزال مستمرة بين كنيستي روما والقسطنطينية حتى اليوم.

ويسود الاعتقاد عامة بأن نتائج انفصال العام ١٠٥٤ المستمر حتى يومنا هذا أضعفت الأمبراطورية البيزنطية. وعوض أن يتحد الشرق والغرب المسيحيان في وجه العالم الاسلامي أصبحت تفصل بينهما بعد ذلك التاريخ مشاعر من العداء والكراهية حيث عملت الكنيسة من هذا الجانب او ذاك على تغذيتها ثم تأججت بسبب الحروب الصليبية.

وفي الواقع فإن انفصال العام ١٠٥٤ سجل نصراً لكنيسة الشرق. فبتحرر بطريرك القسطنطينية من وصاية روما أصبح بإمكانه ان يمد سلطته على سائر البطاركة الشرقيين فضلاً عن السلاف المسيحيين. ومن الناحية السياسية فإن هذا الانفصال لم يكن إطلاقاً، كما يسود الاعتقاد، سبب ضعف لبيزنطية، بمنعها طلب العون الغربي في صراعها مع الأتراك السلاجقة. فلو التمس الجانب البيزنطي عون الغرب لكان قد منح او رفض لأسباب لا علاقة لها بمسألة الإنفصال الديني.

ج ـ من العام ١٠٥٥ الى العام ١٠٩٨ : إنحطاط بيزنطي

من نهاية سلالة الأباطرة المقدونيين حتى وصول آل كومنينوس الى العرش أي من العام ١٠٥٦ الى العام ١٠٨١ دخلت الأمبراطورية البيزنطية في مرحلة انحطاط سببها العداء بين الجيش وكبار امراء المقاطعات من جهة، وبين الادارة المركزية والدوائر المدنية في العاصمة من جهة اخرى. إن تلك الحقبة تتميز بإنشقاقات في الداخل وهزائم في الخارج. ومن العام ١٠٥٧ الى العام ١٠٨٠ تعاقب ستة أباطرة على الحكم وسط إضطرابات مستمرة. وفي الغرب إحتل النورمنديون باري في إيطاليا (١٠٧١). وفي البلقان إنحدر الترك

البشناق من الشمال وإجتازوا الدانوب وحاصروا القسطنطينية التي دفعت لهم الجزية. وفي الشرق هاجم الترك السلاجقة أرمينيا البيزنطية وهزموا في ملاذجرد الأمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينوس وأسروه (١٠٧١).

ومع إرتقاء سلالة كومنينوس العرش (١٠٨٠) فإن حزب الجيش وأرستوقراطية المقاطعات إنتصر على حزب العاصمة البيروقراطي. وقد بدأت الحملة الصليبية الأولى في عهد أول امبراطور من هذه السلالة وهو ألكسيس كومنينوس (١٠٨٠ ـ ١١١٨) حيث إجتازت جيوشها القسطنطينية وأراضي الأمبراطورية بدءاً من العام ١٠٩٦. وكانت رسالة مزورة قد أشاعت أن الكسيس نفسه استنجد بالصليبيين لمساعدته ضد الأتراك. ولكن في الواقع لم يوجه الأمبراطور مثل هذا الطلب بل على العكس فقد إستقبل الصليبيين، الذين كان بعض قادتهم وقبل الحرب الصليبية قد سبق واجتاحوا ممتلكاته في أبيروس وتساليا، بريبة وحذر ستثبت الأحداث صحتهما. إن جل ما طلبه الأمبراطور من الغرب اللاتيني هو مرتزقة لمساعدته على حماية المسيحية من هجمات الكفار.